ظاهرة الإعراب في منظور اللسانيين المحدثين

د/ إبراهيم طبشي
جامعة ورقلة (الجزائر)

ملخص:

من المعلوم أن اللغات صنفان ، فمنها ما هو معرب ومنها ما هو غير معرب ، ولا شك أن اللغة العربيـــة تنتمـــي إلـــى الصنف الأول. وإذا كانت سمة الإعراب من السمات التي حظيت بعناية فائقة لدى العلماء قديما فإنها في العصر الحديث قد أثارت من النقاش والجدل ما أسال حبرا كثيرا ، والسبب في ذلك أن بعض اللغويين اعتبروها سببا من أسباب المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية ، بل إن منهم من اعتبرها عائقا دون تعلم العربية ، ومن ثم كانت دعوته إلى إلغاء الإعراب والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات. ونريد في هذا المقال أن نستعرض بعض وجهات النظر المختلفة لعلماء وباحثين محدثين ومعاصرين.

Résumé:

Certaines langues se distinguent par ce qu’on appelle el Irabe (la différence sous la forme des dernières lettres) et la langue arabe en fait partie. Ce phénoméne est devenu l’objet d’une polémique entre nombreux chercheurs. Certains d’entre eux voient que el Irabe complique l’apprentissage de l’arabe . dans cet article , nous essayons de mettre la lumière sur ce sujet en exposant un de ces points de vue **.**

نص المقال:

يحسن في بداية هذا المقال أن نقف عند تعريف الإعراب ، وكيف نظر إليه أصحاب المعاجم قديما ، جـــاء فـــي لسان العرب :" قال الأزهري: الإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو الإبانة، يقال : أعرب عنه لسانه وعرّب أي أبان وأفصح."1 وجاء أيضا:" ويقال أعرِبْ عما في ضميرك أي أَبِنْ، ومن هذا يقال للرجل الذي أفصح بـــالكلام أعـــرب."2 وجاء أيضا :" وعربية الفَرَس :عتقُه وسلامته من الهجنة، وأعربَ صهل فعُرِف عتقُه بصـــهيله. والإعـــراب معرفتـــك بالفرس العربي من الهجين إذا صهل. وخيل عِرَاب معربة قال الكسائي : والمعرب من الخيل الذي لـــيس فيـــه عـــرق هجين."3 يستنتج من هذه التعريفات لمادة " أعربَ" أنها تدور حول معاني " الإفصاح والإبانة والصفاء وعدم الاخـــتلاط والهجنة "

أما علماء النحو فقد عرفوه كما يلي:

1 . يقول ابن جني في باب القول على الإعراب: هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ , ألا ترى أنك إذ سمعت أكرمَ ســـعيدٌ أباه وشكرَ سعيدا أبوه ,علمت برفع أحدهما ونصب الأخر الفاعل من المفعول , ولو كان الكلام شرجا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه ." 4

2 . ويقول ابن هشام الأنصاري : الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكن والفعل المضـــارع 5".

3. ويقول السيوطي في سياق الحديث عما اختصت به العرب: "من العلوم الجليلة التي اختصَّت بها الإعرابُ الذي هـــو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز الفاعل من المفعول ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصدور ، ولا نعت من تأكيد ." 6

يستنتج من هذه التعريفات أن بعض النحاة يركز في تعريفه على العلاقة بين الإعـــراب والمعنـــى وأنـــه لـــولا الإعراب لاستبهم المعنى ، في حين أن آخرين يربطون بين الإعراب والعامل ، وفكرة العامل كما هو معلـــوم ابتـــدعها النحاة لتفسير ما يعتري الكلمات من تغير في الحركة الإعرابية.

وإذا كان العلماء قديما لم يختلفوا بشأن أثر الإعراب في المعنى فإن معركة حامية الوطيس قد جرت بشأن هــذه المسألة بين بعض أعلام الدرس اللساني في العصر الحديث . فبعضهم تمسك بالإعراب ورآه عنصرا ضــروريا فــي تحديد الدلالة , في حين أنكر آخرون ذلك واعتبروه مجرد حركات لوصل الكلام بعضه ببعض .

ولعل من أبرز من يمثل هذا الفريق المنكر لوظيفة الإعراب الدلالية إبراهيم أنيس في كتابه "من أسرار اللغــة " فهو يقول في الفصل الثالث تحت عنوان : " قصة الإعراب" : "ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها مــن ظــواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية , ثم حيكت وتمّ نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائــل الثاني , على يد قوم من صنّاع الكلام نشأوا معظم حياتهم في البيئة العراقية . ثم لم يكد ينتهي القرن الثــاني الهجــري حتى أصبح الإعراب حصنا منيعا , امتنع حتى على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية , ويشق اقتحامه إلا على قوم سمّوا فيما بعد بالنحاة " 7

الإعراب إذن ليس حقيقة من حقائق العربية ولا خصيصة من الخصائص التي لازمتها، ولكنه شــيء مســتحدث استحدثه قوم من النحاة في نهاية القرن الأول الهجري أو بداية القرن الثاني ، هكذا يدعي أنيس! ويبدو واضحا هنا جهله أو تجاهله بعدم التمييز بين الإعراب وعلم الإعراب، ثم إن في وصفه الحقيقة الإعرابية بالقصة ما يوحي بالتشكيك فيهــا والاستخفاف بها.

ويمضي أنيس في دعواه منكرا أن يكون الإعراب من مستلزمات الفصاحة اللغوية التي كان يتصف بها العــرب فيقول : " وعلى هذا يمكننا أن نتصور أن ظاهرة الإعراب لم تكن سليقة في متناول العرب جميعا كما يقول النحاة , بل كانت كما قلت في كتاب " اللهجات العربية " صفة من صفات اللغة الأنموذجية الأدبية , ولم تكن مــن معــالم الكــلام العربي في أحاديث الناس ولهجات خطابهم."8

إن أنيسا هنا ينكر ما تواضع عليه علماء اللغة العربية من كون الإعراب كان سليقة في العرب ، وهــو يســاير خرافة اللغة الأنموذجية الأدبية التي ابتدعها المستشرقون.9

ثم نجده بعد ذلك يقف على ما يعتبره علاجا للمشكلة ومفتاحا للسر فيقول تحت عنوان "مفتــاح الســر ظــاهرة الوقف" : " يظهر والله أعلم أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرا أو نثرا , فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات , بل يقف على آخر كلمة من قوله يُسمّى السكون , كمــا يظهــر أن الأصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضــرورة صــوتية يتطلبهــا الوصل."10 ويأتي بما يراه دليلا على عدم أهمية الحركة الإعرابية فيقول : " ويكفي للبرهنة علــى أن لا علاقــة بــين معاني الكلام وحركات الإعراب أن نقرأ خبرا صغيرا في إحدى الصحف على رجل لم يتصل بــالنحو أي نــوع مــن الاتصال , فسنرى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط في إعراب كلماته برفع المنصوب ونصب المرفــوع أو جره ... إلخ فليست حركات الإعراب في رأيي عنصرا من عناصر البنية في الكلمات , وليست دلائل على المعاني كما يظن النحاة , بل إن الأصل في كل كلمة هو سكون آخرها , سواء في هذا ما يسمى بالمبني أو المعرب . إذ يوقف على كليهما وتبقى مع هذا أو رغم هذا واضحة الصيغة لم تفقد من معاملها شيئا "11

لا نريد أن نناقش أنيسا فيما قدمه من دليل على أن الأصل في كل كلمة هو سكون آخرها , سواء في ذلك المبني والمعرب , إذ المعروف أن الكلمة المعربة في الأصل قابلة لأن يطرأ عليها الفتح أو الكسر أو الضم إذا كانت اســما ، وأن يطرأ عليها الضم أو الفتح أو الجزم إذا كانت فعلا , أما الكلمة المبنية فهي التي تلزم حركــة إعرابيــة واحــدة لا تغادرها إلى غيرها . ولكن نريد أن نناقشه فيما قدمه من دليل على فهم أي رجلٍ لأي جملة مهما عبثنا بإعراب كلماتهــا , ونسوق الآية الكريمة التي كانت سببا - كما يروي اللغويون - في نشأة علم النحو وهي قوله تعالى : " أن الله بــريء

من المشركين ورسوله " ونسائل الدكتور : أيكون تحريك لام "رسوله" بالضم والكسر سواءً من حيث المعنى؟ ألا ينقلب المعنى رأسا على عقب إذا كانت اللام بالكسر، إذ يكون المقصود أن الله يتبرأ من المشركين ورسوله على السواء ؟

ولعل من أحسن الردود التي تُوجه إلى دعاة تسكين الكلمات ما أشار إليه الأستاذ عباس حسن من مشكلات كثيرة سوف تتسبب فيها هذه الدعوى يمكن أن نلخصها فيما يلي :12

1. أن التراث القديم كله - دينيا وغير ديني - لا سبيل لفهمه بغير الإعراب الذي يدعون إلى تركه , والشعر العربي يقوم في أوزانه وتفعيلاته على الإعراب أيضا .
2. أن الدعوة إلى تسكين أواخر الكلمات سوف تقف أمامها عقبة , وهي الكلمات التي تعرب بالحروف كالأسماء الستة , والأفعال الخمسة والمثنى ولواحقه وجمع مذكر السالم ، فهل يمكن الاستغناء بالسكون عن الحروف الإعرابية في مثل : جاء أبوه -رأيت أباه - استمع إلى أبيه .
3. وعقبة أخرى سوف تقف دون تسكين أواخر الكلمات , وهي الكلمات التي قبل آخرها حرف علة يجب حذفه إذا سكن الآخر , ولم يتحرك كالياء والواو في يصول ويبيع وغيرهما .
4. هناك من الكلمات ما يتغير حروفها التي ليست في أواخرها كالذي يقع عند بناء الفعل للمجهول , وكالذي يحصل من ضم المضارع إذا كان ماضيه رباعيا وفتح ما عداه .
5. وسيحدث لبس في الأسلوب الذي يقدم المفعول به للدلالة على الحصر في مثل " محمداً أكرم عليٌ " فعند التسكين المزعوم تقول " محمد أكرم علي " فلا يدري الفاعل من المفعول."

هذه مجموعة من الأدلة يمكن أن تكون مقنعة لمن ينشدون الصواب ويبحثون عن الحقيقة، أما من كان منطلقهم العناد والمكابرة فلا يمكن أن يقنعهم شيء.

وخير ما نختم به في تقييم ما جاء به الدكتور أنيس ما قاله الأستاذ عبد السلام المسدي: " إن الدكتور إبراهيم أنيس قد كان رائدا من رواد البحث اللغوي الحديث في تاريخ نهضتنا العربية المعاصرة . وإنه قد مثَّلَ فترة مخصوصة من تاريخ المعرفة اللغوية كان فيها مجسِّما خيرَ تجسيم للارتباكات الأولى التي أثقلت مسيرة العلم اللغوي , ومجسِّدا أيضا لما يطرأ على المعرفة عند ارتحالها من بيئة ثقافية إلى أخرى"13 . إن المسدي هنا يقف على الأسباب الكامنة وراء ما نجده من شذوذ في آراء أنيس ، ويتمثل ذلك في انبهار هؤلاء الباحثين بما وجدوه في الثقافة الغربية ، ومحاولتهم تطبيق مقولاتها ونظرياتها على الثقافة العربية وعلومها وفروعها.

والحقيقة أن إبراهيم أنيس ليس إلا وجها من وجوه كثيرة سارت في هذا الاتجاه , ودعت إلى ترك الإعراب وتطوير اللغة العربية , وقد استعرض الدكتور أحمد سليمان ياقوت جانبا من آرائهم في كتابه " ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم " ومن هؤلاء الذين ذكرهم أيضا " أنيس فريحة وقاسم أمين وسلامة موسى وحسن الشريف ".14 وهو بعد أن يعرض آراءهم يقول : " وبعد فلعلنا بعد هذا العرض نستطيع أن نُرجع الدعوة لترك الإعراب إلى سببين :

1- الأول : ضعف المستوى العلمي الخاص بمادة النحو عند المتعلمين منذ أن كانوا أطفالا في المدارس الابتدائية حتى تخرجهم من الجامعات , فليس أسهل- والحال كذلك - من المناداة بالتخلي عن الإعراب .

2- الثاني: الدعوات المغرضة التي يروّج لها بعض الكتاب بترك الإعراب مدّعين أن ذلك من سمات العصر بما فيه من تقدم ورقي وساعدهم في ذلك المستشرقون والمستعمرون , لأن التخلي عن الإعراب معناه التخلي عن الفصحى , وهذا يؤدي إلى ضعف النعرة القومية عند العرب مما يسهل مهمة الاستعمار" 15

إن الدعوة إلى ترك الإعراب - كما يذهب إلى ذلك أحمد سليمان ياقوت- تستند إلى الواقع وتـردّي مستوى المتعلمين في النحو، ولكن هناك عاملا آخر أهم من الأول وهو المؤامرة على اللغة العربية ، فلا يمكن أن تتهيأ السبيل للاستعمار إلا بالقضاء على مقومات الأمة وثوابتها.

وفي مقابل هذه الفئة من اللسانين الذين جحدوا ظاهرة الإعراب وارتباطها بالعربية , نجد فئة أخرى كانت لها نظرة مخالفة لذلك , ومنهم الأستاذ عبد السلام المسدي الذي كتب كتابا سماه " العربية والإعراب ", وفي هذا الكتاب يتناول الأستاذ مسائل كثيرة تتعلق بالإعراب وإنتاج الدلالة والفرق بين اللغات الإعرابية واللغات غير الإعرابية ودور المدرسة في اكتساب اللغة الفصيحة المعربة .

إن أول ما نبدأ به الحديث في بعض القضايا المهمة التي طرحها الكاتب في هذا الكتاب ما تعـرّض إليه في الفصل الثاني حيث بيّن الفرق بين تركيب الألفاظ في اللغات الإعرابية وغير الإعرابية فيقول : " وإنما نعني الصورة التي بها اللّحامُ بين الألفاظ حيث ترتصف في الخطاب , وهذه على ضربين لا غير : فإما أن آلية اللغة تعتمد في ذلك توفير أدوات لفظية يتم بها ربط الكلمات بعضها ببعض ولاسيما عند الإبلاغ بالخبر , وإما أنها تتجاوز عن ذلك فلا تصرح بالرابطة معتمدة على تغير أواخر الكلمات الذي يصبح هو ذاته قرينة كاشفة لطبيعة العلاقة الحادثة بين الألفاظ ." 16 إذن فإن لكل لغة نظامها ، فمنها ما يعتمد على الأدوات اللفظية للربط بين الكلمات ومنها ما يكون سبيله إلى ذلك الإعراب .

ويلفت المسدي الانتباه إلى أهمية النحو في الكشف عن الدلالة فيقول: "وكل ما سلف يوقفنا مرة أخرى على أن الدلالة ليست في الألفاظ , وليست في مجرد التركيب , وإنما هي في آليات الارتباط الحادثة بين الألفاظ عندما تتوالى في الكلام تواليا نسقيا , وليس من مرجع في ذلك إلا النحو , فهو المقياس الضابط لسلامة البناء من حيث هو الضابط لبلوغ المعنى ." 17

ثم يبين بعد ذلك أهمية الإعراب في اللغات الإعرابية ومنها العربية , فيقول عنها بأنها "تتوفر على آليات في إنتاج الدلالة تضاهيها آليات الألسنة غير الإعرابية كالفرنسية والإنجليزية , وبناء على ذلك يكـون " النحـو " بمجمله مختلفا في إجراءاته بين اللغة العربية والألسنة الأخرى : الجهاز النحوي في اللغة الإعرابية إيذان بخروج المعجم إلى تدوال وحلول المفرد في السياق لأنه كشف للقرائن القائمة بين الألفاظ من داخل أبنية الألفاظ ذاتها , لذلك كـان المعنى وليد حيثيات الاقتران بين الكلمات عندما تتوالى في سياق التعبير فضلا عن أنه - كما في اللغات غير الإعرابية - وليد مواقع الألفاظ في نسيج التركيب "18

وبخصوص القضية الشائكة المتعلقة بنشأة الإعراب وعلاقته بالمعنى يقول المسدي , "ولو أن قارئا تفرغ بعض التفرغ لاستنطاق " الكتاب" (المقصود هو كتاب سيبويه) من هذه الزاوية لثبت لديه بما لا دخل للشك فيه أن سيبويه كان يدرس اللغة العربية وهو واع بأنها في حالة صيرورة تاريخية , وبأن ظاهرة الإعراب هي خاصية ملازمة للوظيفة الدلالية التي من أجلها يتوسل الإنسان بالكلام . وهذا في ذاته مرمى جوهري من مرامينا لأن سيبويه الذي كان شاهدا على جل عقود القرن الثاني للهجرة (ت180 ه) والذي كان صدى أمينا للمخاض المعرفي حول اللغة كما جسمه أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170ه) ما كان بوسعه أن يغفل عن حقيقة الإعراب لو كان الإعـراب عنصـرا غير محايث للغة العربية , لا سيما وهو الأعلم بالأسباب المباشرة وغير المباشرة التي حفت بنشأة علم النحو" 19

ولا نغادر المسدي هنا دون أن نثبت رأيه فيما لابسَ طرح هذه القضية في العصر الحديث إذ يقـول " غيـر أن الناظر في ظلال القضية , والمتقصي لكل متضمنات إثارتها ولا سيما في العصر الحديث , يدرك بيسر تام أنها انزاحت عن سكّتها لأن بعض الذين تناولوها قد انزلقوا بها عن مسارها الطبيعي , فانقلبت على أيديهم إلى مسألة ثقافية عامة , بل انتقلت إلى دوائر أخرى من النظر لن نجازف إن قلنا هي ذات بعد حضاري لارتباطها بتفسير مقومات التاريخ

وذات بعد معرفي لوثيق اتصالها بآليات التفكير وحيثيات التوظيف"20 لاشك إذن في أن هؤلاء البـــاحثين قـــد اقتنعـــوا بالأنموذج الغربي وأصبح الأساس في نظرتهم إلى الأشياء فما وافقه فهو جيد وما خالفه فهو سيء ورديء.

ولعل من الذين أنكروا الإعراب مَن حاولوا أن يلبسوا أفكارهم لبوس العلم , فإلى هؤلاء توجه المسدي بقوله" فإذا كان علم اللغة من حيث هو مصطلح ومن حيث هو مضمون علمي , يعني بالنسبة إلى واقعنا العربي في تاريخه وفـــي جغرافيته وفي مكونه الحضاري - معرفة ما في فترة ما في جهة ما , فإن تبعات هذه النظرية المتأسسة علـــى إنكـــار الوجود التاريخي للإعراب لا تلقى إلا عليه . أما إذا كان مفهوم علم اللغة - في ذهن من يلهج له أو فـــي ذهـــن مـــن يصغي إليه - مطابقا لمفهوم " اللسانيات " في بعدها المعرفي الأشمل وفي امتدادها الثقافي الأقصـــى , وفـــي أصـــولها الإيبستيمية الأعمق , أو كان الذي يفوه باللسانيات هو ممن يطابقون بينهما وبين مصطلح "علم اللغة" فإننا نعلـــن بـــراءة اللسانيات من هذا التأول, ونؤكد مناقضتها لهذا المنهج ونصدح باعتراضها على هذه المصادرة " 21

ومن الذين تناولوا مسألة الإعراب أيضا الأستاذ عبد القادر المهيري في كتابه "نظرات في التراث اللغوي العربي ", فهو يعقد فصلا تحت عنوان " دور الإعراب " ، ومنذ بداية هذا الفصل يقرر حقيقة يراها من المسلمات وهي الـــدور المعنوي للإعراب فيقول "من المعلوم أن الإقرار بدور الإعراب في أداء المعنى وتبليغه هو الرأي الذي ســـاد أمهـــات الكتب النحوية , ردده علماء الأصول وقال به أصحاب المختصرات والشروح وأجمع عليه البصريون والكوفيـــون "22 وهو يرسم خطة مقاله فيقول " وليست غايتنا هنا أن نأتي بالقول الفصل وإنما نروم المساهمة في تقويم وضـــع القـــدماء للمشكل ومدى ما تنم عنه مواقفهم من حسّ لغوي . ولن نقف إلا عند موقف القائلين بوظيفة الإعراب المعنوية ، فمـــن الواضح أن الرافضين لدلالته المعنوية كأنهم يعتبرون أن اللغة يمكن أن تتضمن علامات لا فائدة معنويـــة فيهـــا , وأن الأصوات يمكن أن يختلف بعضها عن بعض الكلام بدون أن يستفيد المرء من اختلافها, ولا يخفى أن مثل هذا الاعتبار يتنافى مع منطق اللغة وطبيعة الأشياء "23

ويذكر الأستاذ المهيري أن النحاة العرب القدامى قد انتبهوا إلى وجود مستويين من العلاقـــات فـــي الكـــلام : " مستوى أول من العلاقات بين الكلمات وتتجلى في صورها وأبنيتها إذ فيها من وجوه الاختلاف أو الشبه ما يمكـــن مـــن مقابلة بعضها ببعض وإدراك قيمها المعنوية , وهذا الصنف يتميز بنوع من الاستقرار لأنه متأصل في الكلمة تؤديه نوع الأصوات التي تتكون منها ونسقها وترتيبها ، ومستوى ثان من العلاقات هو من مجال التركيب لا يبـــرز إلا فيـــه ولا يستفاد إلا منه، فنفس الكلمة التي لا يعتبر بها التباس إذا نظرنا إليها من زاوية الاستبدال تستبهم على حد تعبير ابن جني أو تلتبس في التركيب حسب ابن خشاب "24

إن الأستاذ المهيري يقر بأن النحاة العرب نجحوا في تحديد أنواع من العلاقات فهُمْ على حد قوله : " تمكنوا مـــن توزيع علامات الاسم الثلاث على ثلاث مجموعات كبرى من المعاني النحوية وهي علاقة الإسناد وعلاقـــة المفعوليـــة وعلاقة الإضافة ,فالرفع عند الزمخشري مثلا " علم الفاعل "والنصب علم المفعولية والجر علم الإضافة "25. ولكن هل نجح هؤلاء النحاة في تقديم التعليل لكل ظاهرة إعرابية في الأسماء والأفعال ؟ يناقش المهيري هذه المسألة فيبدأ بإعراب الأسماء , ويخلص من ذلك إلى القول : " هكذا نلاحظ أن النحاة تمكنوا من وضع مشكل إعراب الاسم ووجدوا له فـــي مستوى المبادئ حلا يبدو متماشيا مع منطق اللغة , كما أنه لم يَخفَ عنهم ما يثيره هذا الحل من بعض المشـــاكل فـــي مستوى التطبيق وإن لم يقدموا دوما الحلول التي تبدو مقنعة وتبرز اللغة في صورة نظـــام متكامـــل متناســـق."26 ولا يختلف الأمر كثيرا في موقف النحاة من تعليل الظاهرة الإعرابية في الأفعـــال (الفعـــل المضـــارع طبعـــا) وبعـــد أن يستعرض رأي البصريين والكوفيين يخلص إلى القول : "مرة أخرى يلجأ النحاة إلى ما كنا أشرنا إليه من مفهوم التسوية لتفسير الظاهرة الإعرابية فينطلقون من الحالات التي يبدو فيها دورها واضحا يحتاج إليه المتكلم ولا يجد غيره وســـيلة لتخليص خطابه من اللبس ويحملون غيرها عليها , وإن لم تكن فيها الأسباب الداعية إلى الإعراب , مرة أخرى نلاحـــظ

الفرق بين التفسير على الصعيد المبدئي والتعليل في مستوى التطبيق . إن النظام الإعرابي في العربية يبدو لنا متناسقا إذا نُظر إليه بصفة إجمالية ولكن إذا نظر في جزئياته تبدو صعوبة التفسير الشامل الذي يفي بكل التفاصيل"27

ويختم الأستاذ المهيري بتساؤلات قد يفهم منها التشكيك في الظاهرة الإعرابية ، ومن ثم يبادر إلى القول : " ليس في هذه التساؤلات دعوة إلى التخلي عن الإعراب ولا تعبير عن الاحتراز إزاءه , وإننا نعتقد أن علامة الإعراب من القرائن المعبرة عن المعنى لكن أردنا أن نبرز صعوبة الاهتداء إلى منهج يمكن كشف التطابق في كل الحالات بين الدال الإعرابي والمدلول المعنوي ويسمح بضبط ذلك التطابق بصفة دقيقة لا مجال للخلاف في شأنها " 28

وبعد هذه المقتطفات التي تظهر بوضوح موقف كل من المسدي والمهيري المؤكِّد للعلاقة بين الإعراب والمعنى ، نورد رأيا للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح يميز فيه بين مستويين في أداء العرب القدامى للغتهم , يقول فيه" كان العرب في مخاطبتهم العادية يختزلون ويحذفون ويدغمون ويختلسون ويسمى ذلك الإدراج . وجاء ذلك أيضا في القراءات القرآنية المشهورة وغيرها . وكل ذلك كان له مقابل وهو الإتمام والتحقيق والبيان وفي القرآن الترتيل . فهذا يدل على أن للعربية الفصحى مستويين - ككل لغة حية في الدنيا - التعبير الاسترسالي والتعبير الإجلالي (لحرمة المقام) . فأما الأول وهو جانب هام جدا ومع ذلك فقد أهدر في التعليم المدرسي واعتبرت الظواهر الاستخفافية شيئا شاذا يكتفى بدراستها في فقه اللغة . كما اعتبر كل ما يوجد في العامية ولا يستعمل الآن في الفصحى غير فصيح على الرغم من وروده في القرآن أو النصوص القديمة . ونقترح بعض الوسائل لاسترجاع العربية الفصحى لمستواها الشفاهي الطبيعي , إضافة إلى مستواها الترتيلي وكلاهما ضروري " 29 إن الأستاذ ينبه إلى حقيقة يجهلها كثير من الناس وهي وجود المستوى العفوي في اللغة العربية الفصحى وهو الذي يتم فيه التخفف من كثير من الظواهر التي تراعى في المستوى الإجلالي، وذلك ما ينبغي التنبه إليه عند وضع المناهج الدراسية.

ويطرح الأستاذ مشكلة الأخطاء اللغوية 30 وكيف وُجدت محاولات كثيرة لعلاجها , ولكنها لم يكتب لها النجاح . ويطرح سؤالا مفاده : هل هذا دليل على استحالة التدخل في استعمال الناس للغة , وبالتالي استحالة التقويم وإزالة الأخطاء ؟ ويجيب عن هذا السؤال بأن اللسانيين البنويين قد أجابوا بالإيجاب وأنهم يعترضون على كل من يحاول التقويم وحجتهم في ذلك أنه " من العبث أن يحاول الإنسان إبقاء اللغات على حالها المتعارف عليه في وقت من الأوقات إذ التغيير سنة كونية ليس في مقدور أحد من الأفراد أن يؤثر فيه فيوقفه عن مسيرته أو يميله عن الغاية التي يرمي إليها " 31 ولكن الأستاذ لا يقر بهذا الرأي ويرى بأن العربية قد شذّت عن هذه السنة بفضل القرآن الكريم والعلوم المنبثقة عنه .

ويعالج الأستاذ قضية العامية والفصحى فيقرّ بأن اللهجات العامية اليوم هي نتيجة لتطور الفصحى المنطوق بها ولهجاتها . ولكنه ينبه إلى حقيقة تجاهلها كثير من الناس وهي أن اللغة إذا صارت تُكتسب الملكةُ فيها بالتلقين وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتذال واسع للألفاظ تقلصت رقعة استعمالها , وصارت لغة أدبية وعجزت حينئذ أن تعبر عما تعبر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء كانت عامية أم لغة أجنبية .32

ثم يشرح مفهوم الاقتصاد اللغوي فيقول عنه بأنه هو المقصود من كلمة الاستخفاف عند العلماء قديما , وهذه الصفة كما يرى هي التي تمنح اللغة حيويتها , وقد وردت عنها شواهد كثيرة في كتاب سيبويه وكتب القراءات . ثم يقف عند لغة التخاطب الفصيحة العفوية فيذكر بأن من أعظم ما تركه العلماء هو وصف لغات العرب ومذاهب كلامهم , وهو جانب مُهِمٌّ جدا، ولكنه لم يحظ بالعناية الكبيرة من قبل اللغويين المحدثين اللهم إلا النزر القليل من المحاولات 33. وينتقد بعض الممارسات في مدارسنا فيقول : " يريد المعلم قبل كل شيء أن يصحح بالإضافة إلى الأخطاء الحقيقية ما يعتقد هو وغيره منذ مئات السنين أنه خطأ لأنه موجود في العامية , فصار شيئا فشيئا مقتنعا بأن كل ما هو

مستعمل في العامية فهو خطأ في العربية الفصحى حتى ليحكم على الكثير من المفردات والتراكيب الفصيحة أنها عامية محضة . وهذا وَهْمٌ قد عمَّ المشرق والمغرب منذ زمان بعيد . وكان يمكن أن يتلافى لو أبقيت الدراسة للقراءات القرآنية وأخَصُّ من هذا لو أدخلت في مناهج المدارس العليا للمعلمين دراسة الأداء العربي كما وصفه علماؤنا الذين شافهوا فصحاء العرب ودونوا مباشرة مخاطباتهم " 34

وبعد فهل يقصد الأستاذ عبد الرحمن برأيه هذا التخلي عن الإعراب ضمن ما يطرح من ظواهر الاقتصاد والاستخفاف؟ لا يمكن أن نفهم ذلك ، ولا نعتقد أن أحدا من العلماء القدامى قال بذلك، ولكن ما قصَدَه الأستاذ هو التخفف من بعض الظواهر اللغوية التي لا يجوز إهمالها في مقام التجويد ، ويجوز التغاضي عنها في مقام الأنس . وشتان بين هذا الرأي وبين رأي أنيس وغيره من دعاة إلغاء الإعراب.

لقد تناولنا في هذا المقال قضية من أهم القضايا التي تتعلق باللغة العربية وهي قضية دلالة الإعراب على المعنى ، فكما أن هناك من ينكر هذه العلاقة وينفيها نجد من اللسانيين البارزين من يثبتها ويؤكدها . والذي نعتقده أن رأي المنكرين لا يستند إلى حقائق وأدلة لغوية صرفة بل من المؤكد أن لاتجاهم الفكري أثرا في صياغة موقفهم من هذه القضية.

الإحالات والهوامش

1 لسان العرب ، ابن منظور ، دار الفكر الطبعة السادسة 1997 ج 1 ص 588

2 المصدر نفسه والصفحة نفسها

3 المصدر نفسه ج1 ص 589

4 الخصائص تحقيق عبد الحكيم بن محمد ، ابن جني ، المكتبة التوقيفية ط { د ت } ج1 ص 46

5 شرح شذور الذهب ، ابن هشام الأنصار ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ، الطبعة (د ت)ص33

6 المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ط 1987 ج1 ص 327ـــــــ328

7 من أسرار اللغة ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة1978ص 198

8 المرجع نفسه ص 203

9 يكفي لدحض هذه الخرافة أن نورد رأي الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح الذي يقول : " أن القول بأن العلماء القدامى لم يتفطنوا إلى وجود لغة أدبية مشتركة بين العرب وإلى أن لغة التخاطب كانت تختلف باختلاف اللهجات أو على أقل تقدير لم يتفطنوا إلى أهمية التمييز في الدراسة بين ما هو استعمال اللغة الخاصة بالأدب وهي الفصحى وما يرجع إلى الاستعمال العادي وهو الحاصل باللهجات . فهذا عندنا قول جزاف فيه ظلم كبير لعلمائنا وازدراء بما أبدعوه من عجيب التحليل والتعليل وما أظهروه من شدة التحرج في أقوالهم العلمية " من كتابه " السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة "، طبعة موفم للنشر الجزائر 2007 ص 151

10 من أسرار اللغة ص 220

11 المرجع نفسه ص 242

12 اللغة والنحو، عباس حسن ، نقلا عن ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، ط 1983 ص 42 ـــــ 43

13 العربية والإعراب ، عبد السلام المسدي ، مركز النشر الجامعي 2003ص 208

14 انظر ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ، أحمد سليمان ياقوت ، ديوان المطبوعات الجامعية ، طبعة 1983 ص 35 ــ 36

15 المرجع نفسه ص 42

16 العربية والإعراب 72

17 المرجع نفسه ص 94

18 المرجع نفسه ص 73

19 المرجع نفسه 108

20 المرجع نفسه ص 104

21 المرجع نفسه ص 176

22 نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 1993 ص 55 - 56

23 المرجع نفسه ص 56

24 المرجع نفسه ص 57

25 المرجع نفسه ص 58

26 المرجع نفسه ص 60

27 المرجع نفسه ص 63

28 المرجع نفسه ص 63

29 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، عبد الرحمن الحاج صالح ، طبعة موفم للنشر الجزائر 2007ج1 ص 64

30 انظر المرجع نفسه ص 66

31 المرجع نفسه ص 66

32 المرجع نفسه ص 68

33 المرجع نفسه ص 68

34 المرجع نفسه ص 75

36 المرجع نفسه ص 74 - 75